

التراث الإستمولوجي الوضعاني: أسسه، وتجلياته، وحدوده

حسن الحريري
باحث مغربي



قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

الملخص التنفيذي:

يعتبر العلم ظاهرة إنسانية بامتياز، ينمو ويتطور داخل سياق الحضارة الإنسانية، وبفعل الإنسان يصحح ذاته ويتجاوز وضعياته ويؤسس إمكاناته عبر السيرورة والتحول. إنَّ الدرس الإبستمولوجي لا ينجز في فضاء فارغ بل في سياق العلم، باعتباره مجال تحقق الفعل التعقلي العلمي وتفاعله مع الوقائع التجريبية أو العقلية. فالعلم لا يفكر في ذاته وإنما الممارسة الإبستمولوجية هي التي تتكفل به على مستوى مبادئه ومناهجه وموضوعاته ومفاهيمه، كما تبحث في شروط إنتاجه وكيفيات تقدمه من خلال الكشف عن تكون المفاهيم وتغير العبارات وتصحيح نتائج التجارب، والوقوف عند عناصر الجودة والتحول في مساره في لحظة معينة. فالأفكار التي ثورت العلم وخلقت أزمتها وانفصالات تعبر عن الدينامية العلمية وصيرورة الفعل العلمي وبعده التاريخي وقيمه النقدية.

إنَّ الأفكار والنظريات تسافر وتتلاقح، بل تتصادم لتخلق لنفسها مساراً تاريخياً لا يمكن فهمه وتفسيره إلا من خلال الإمساك بمنطق اشتغالها والانفتاح على تلك الأفكار التي بقدر ما تكون جزءاً من تطور الفكر الإنساني تكون في الوقت ذاته عنصر جودة وإضافة إليه. إنَّ البحث الإبستمولوجي ينهل من مجالات بحثية متعددة ويقيم علاقات تفاعلية معها، حيث تجعله يطور ذاته باستمرار، وهذا يبرز من خلال التصورات الإبستمولوجية المختلفة.

في هذا المقال سنقف عند بعض القضايا الأساسية للمدرسة **الوضعية المنطقية**، أو ما يسمى **بالوضعانية الجديدة**، حيث اعتبرت منعطفاً إبستمولوجياً وفلسفياً طبع الفكر الغربي طيلة القرن العشرين، ومازالت تداعياته تحكم هذا الفكر نظرياً وتطبيقياً. فما هي أسس الفكر الوضعاني؟ وماهي تجلياته وحدوده؟

1- النشأة والتطور

شهدت البدايات الأولى للقرن العشرين عدة تطورات وتحولات جذرية في بنية العلم، فظهرت نظرية النسبية ونظرية الكم، كما احتلت الوضعانية الجديدة بكل مدارسها الساحة الفلسفية الغربية، رغم ظهور - في تلك المرحلة - مجموعة من التيارات الفلسفية لمواجهة الكانطية الجديدة، التي كانت تهيمن على الفكر الفلسفي الغربي آنذاك: كفينومينولوجيا هوسرل Husserl، وأنطولوجيا هيدجر Heidegger، وفلسفة نقدية عند كل من هوركماير Horkheimer، وبلوخ Bloch، وبنيامين Benjamin، وكارل كورش Karlkorch.

وبدأت تظهر في الأفق مجموعة من النزعات ضد الميتافيزيقا تحاول أن تنتظر إلى العالم بمنظار علمي، رغم أنها لم تجتمع رسمياً في مدارس معينة لها برامجها، فمثلاً في إنجلترا لاحت في الأفق نزعات معادية للميتافيزيقا، وتجلت بوضوح في أبحاث راسل Russel ووايتهد Whitehead المنطقية في تحليل الواقع، وفي الولايات المتحدة الأمريكية بدأت هذه النزعات تأخذ أشكالاً مختلفة، وبمعنى ما، يمكن اعتبار وليام جيمس William James أحد ممثليها، وفي روسيا الجديدة بدأ تكريس الجهود من أجل نظرة علمية للعالم، رغم أنها اعتمدت جزئياً على اتجاهات مادية قديمة في برلين بالخصوص. ركز الباحثون على توجيه أبحاثهم تجاه نظرة علمية للعالم (ريشنباخ Reichenbach، باتزولد Petzold، كريلين Grelin، ديبسلاف Dubislav، وآخرون)، لكن في فيينا الأمر جد مختلف وخاص: فطيلة القرن التاسع عشر كانت الليبرالية هي الميول السياسية المهيمنة في فيينا، وأصول عالمها الثقافي والفكري كان هو عصر الأنوار، التجريبية والنفعية، بالإضافة إلى حركة التبادل الحر الإنجليزي. ثم انخرط العلماء في الحركة الليبرالية في فيينا، ومن هناك انطلق الفكر المضاد للميتافيزيقا.

وبشكل عام، فإن الحياة الكثيفة التي تتمظهر في المجهودات من أجل تحويل النظام الاجتماعي والاقتصادي بشكل عقلائي تغذي أيضاً حركة النظرة العلمية للعالم¹.

وفي ظل هذا الواقع الفلسفي الإبستمولوجي المثير والمتنوع، ونتيجة للتغيرات العميقة التي شملت كافة أوجه الحياة، ظهرت الوضعانية الجديدة المستندة على ظاهريّة ماخ Mach المغرقة في الحسية، التي تعتبر أنّ

¹ H.Hahn, O.Neurath, R.carnap, « Conception scientifique du monde », in: A.soulez, Manifeste du cercle de Vienne et autres écrits, ed, presses universitaires de France, Paris, 1985, P.110.

الإحساسات هي الواقع الوحيد الذي بإمكاننا التأكد من وجوده، حيث يقول: "ليس هناك شيء واقعي، باستثناء الإدراكات، وكل العلم الطبيعي في آخر المطاف تكييف اقتصادي لأفكارنا مع إدراكاتنا".²

لقد نشأت هذه المدرسة بفيينا على إثر الاجتماعات التي كان يقوم بها بعض العلماء والفلاسفة، عرفوا فيما بعد بـ "جماعة فيينا" أو "حلقة فيينا"، وأسسوا لهم مجلة يشرحون فيها آراءهم ومواقفهم ونظرياتهم، التي كانت تهدف إلى استبعاد وحذف الميتافيزيقا، وإلى التحليل اللغوي والمنطقي للعبارات العلمية، وجعل الفلسفة تابعة للعلم. وقد انتقل أعضاء هذه المدرسة إلى بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، نتيجة تأزم الوضع السياسي بأوروبا، خصوصاً بعد وصول الحزب النازي للسلطة بألمانيا، حيث أسسوا فروعاً هناك.

لكن ما يميز أعضاء هذه الجماعة هو أنّ وجهات نظرهم مختلفة وغير موحدة، وبالتالي فهي لا تمثل اتجاهاً واحداً، بل اتجاهات فلسفية متغايرة ومتباينة بخصوص بعض المسائل، وتلتقي في القضايا التي تعتبرها مركزية ومؤسسة لكل الاتجاهات التي تحتضنها³. يقول فيجل Feigl: "رغم العديد من الاختلافات في الرأي فإنّ روح التعاون الأخوي كانت لافتة للنظر داخل الحلقة، وكان العمل النهائي هو البحث المشترك من أجل الوضوح"⁴. كما جاء في بيان الحلقة ما يلي: "تكونت حول شليك Schlick حلقة وحدّ أعضاؤها مساعيهم باتجاه نظرة علمية للعالم، وقد أثار هذا التجمع منافسة خصبة [...] فقد عمل الجميع في مجال خاص من العلم، وقد جاؤوا في الواقع من فروع علمية مختلفة⁵، ومن اتجاهات فلسفية مختلفة، ولكن مع مرور الوقت تأكد وجود

² E.Mach, in: G.Holton, thematiorigins of scientific thought, kepler to Einstein, Harvard university, 1988, P.245.

لقد أوضح هولتن Holton في كتابه « L'invention scientifique », أنّ ماخ Mach رفض النظرية النسبية لأينشتاين Einstein، نتيجة تشبته (ماخ) بمواقفه الفلسفية المتطرفة، والمتمثلة أساساً في الواقعية الساذجة.

³ من بين المبادئ الأساسية التي جاء بها البيان وطبعت نقاشات الجماعة هناك:

أ- القضايا إما تحليلية أو تركيبية.

ب- اعتماد المعطيات الحسية كأساس للمعرفة.

ج- استبعاد الميتافيزيقا من مجالات العلم.

د- بناء علم موحد

هـ- اعتماد معيار القابلية للتحقق

⁴ H.Feigl, in J. Joergensen, the development of logical empiricism, vol2, N°9, the university of Chicago press, 1951, P.3.

⁵ ما يمكن ملاحظته على أعضاء الحلقة، أنهم جاؤوا من حقول معرفية مختلفة، فمثلاً: شليك Schlick فيزيائياً، هانز هان Hans Hahn رياضياً، كوفمان Félix Kaufman رجل قانون، نويرات Otto Neurath عالم اجتماع، كايل E.kaila متخصصة في علم النفس، كرافت Victor Kraft مؤرخاً، وفرانك فيليب Philipp Frank فيزيائياً...

انتظام متنام يعود إلى موقف علمي مخصوص: "ما يمكن قوله بوضوح" أمكن أخيراً التوصل إلى اتفاق، بالرغم من تنوع الآراء"⁶.

ومن بين الاتجاهات هناك: النزعة الذرية المنطقية المنتشرة في إنجلترا، أو ما يطلق عليه اسم جماعة كمبريدج، التي تزعمها راسل Russel، ثم النزعة الوضعية المنطقية التي هي امتداد لحلقة فيينا المنحدرة بدورها من نزعة ماخ Mach الفيزيائية، ومن زعمائها: شليك Schlick، كارناب Carnap، ريشنباخ Reichenbach، هامبل Hempl، فايزمان Weizmann، كرافت Kraft. ثم صار لها أتباع آخرون في أمريكا، خصوصاً بين الحربين، عندما هاجر جلّ زعماء حلقة فيينا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، واحتك فكرهم بأراء شارل بيرس charl Pierce البرغماتية، مما أدى إلى انصهار التيارين الوضعي والبرغماتي، واحتضان جماعة فيينا لبعض جوانب الفكر البرغماتي، وتمذهب بعض البرغماتيين، أمثال نيلسون غودمان Nelson Goodman، وكواين Quine بالفكر الوضعي، أما الاتجاه الثالث فهو الفلسفة المنطقية المنتشرة خصوصاً في الولايات المتحدة الأمريكية داخل الوضعيين أنفسهم، وفي أوروبا الشرقية، وعلى الأخص بولونيا حيث مدرسة التحليل البولونية، والتي من زعمائها: أجدوكفيتش Ajdukeiwicz، كوترينسكي Kotarbinski، تارسكي Tarski، ولوكشفيتش⁷ Lukasiewicz.

تتميز النظرة العلمية للعالم عند الوضعانيين الجدد بميزتين: أولاً أنها تجريبية ووضعية توجد فقط المعرفة المتأتية من التجربة، والتي تقوم على ما هو معطى بشكل مباشر بهذه الطريقة يتم رسم الحدود لكل علم مشروع؛ ثانياً تتميز النظرة العلمية بتطبيق منهج معين، هو التحليل المنطقي على المواد التجريبية.⁸

إنّ ما يتجاذب الوضعانية الجديدة، ويجعلها تدور في فلكي التجربة والمنطق، هو اعتمادها على المعطيات الحسية كأساس للمعرفة العلمية، واعتمادها على التحليل المنطقي كأساس لقبول القضايا العلمية وكمعيار للمعنى المعرفي.

لقد اعتبر الوضعانيون الجدد مجموعة من الفلاسفة والعلماء مصداً لتفكيرهم ومنطلقهم الفكري والفلسفي في تأسيس وتحديد الملامح الأساسية لمدرستهم (التجريبية المنطقية)، ومن بين هؤلاء هناك: كونت

⁶ H.Hahn, O.Neurath, R.carnap, « Conception scientifique du monde », in: A.soulez, Manifeste du cercle de Vienne et autres écrits, ed, presses universitaires de France, Paris, 1985, P.113.

⁷ يفوت سالم، مفهوم الواقع في التفكير العلمي المعاصر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة الأطروحات والرسائل: 7، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء (بدون تاريخ)، ص ص 14-15

⁸ H.Hahn, O.Neurath, R.carnap, « Conception scientifique du monde », in: A.soulez, Manifeste du cercle de Vienne et autres écrits, P.118.

Comte، هيوم Hume، ستيوارت ميل S.Mill، ماخ Mach، أفيناريوس Avenarius، هلمهولتز Helmholtz، ريمان Riemann، دوهم Duhem، بوانكريه Poincaré، بلتزمان Boltzmann، انشتاين Einstein، بيانو Piano، فريجه Frege، راسل Russel وفتجنشتاين Wittgenstein...⁹ إلخ، وما يقوله آير Ayer، مثلاً في حق هيوم Hume، خير دليل على هذا التأثير، إذ يقول: "إنه لمن الأمور المدهشة كيف أنّ العديد من المبادئ، التي نطن الآن أنها تميز الوضعية المنطقية، سبق هيوم Hume إلى تأسيسها أو التعرض لها"¹⁰، ثم يضيف كارناب Carnap بقوله: "إننا نشاطر (هيوم) وجهة نظره عندما يجزم بأنّه ليس هناك في العلم، بالإضافة إلى القضايا المنطقية الرياضية التحصيلية (القضايا التحليلية)، إلا العبارات التجريبية للعلم الصناعي، وهذه وجهة نظر نقدية تتميز بها وجهة نظرنا العامة"¹¹.

من هذا المنطلق يتم البحث عن نسق صوري محايد، عن رمزية مطهرة من شوائب اللغات التاريخية، ومن هنا أيضاً البحث عن نسق كلي من المفاهيم، إنّ المقصود هو الوضوح والجلء، أمّا الأبعاد المظلمة والأعماق المغلقة فمرفوضة، في العلم لا وجود "لأعماق" الكل ليس إلا سطح، وتشكل كلفة المعيش شبكة معقدة لا نستطيع دائماً الإحاطة بها بنظرة واحدة، بل غالباً ما لا يمكن استيعاب إلا الجزئي، كل شيء في متناول الإنسان، والإنسان مقياس كل شيء، هنا تتضح القرابة مع السفسطائيين لا مع الأفلاطونيين، مع الإبيقوريين لا مع الفيثاغوريين، مع كل أولئك الذين يدافعون عن الكائن الأرضي¹².

2- من الفلسفة إلى منطق العلم

لقد حاول الوضعانيون الجدد إعطاء تصور جديد للفلسفة، يختلف عن كل التصورات السابقة والمعاصرة لهم. وقد كان تأثير فتجنشتاين Wittgenstein واضحاً على هذه الجماعة فيما يخص معنى وموضوع ووظيفة الفلسفة، حيث يقول في رسالته المنطقية الفلسفية: "إنّ موضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقي للأفكار، فالفلسفة ليست نظرية من النظريات، بل هي فاعلية، ولذا يتكون العمل الفلسفي أساساً من

⁹ Ibid, P.113.

¹⁰ A. Ayer, logical positivism, Illinois, the free press, Glencoe, 1959, P.4.

¹¹ R.Carnap, le problème de la logique de la science, traduction par E.vouillemin et Hermann, P.7.

¹² H.Hahn, O.Neurath, R.carnap, « Conception scientifique du monde », in: A.soulez, Manifeste du cercle de Vienne et autres écrits, P.115.

توضيحات، ولا تكون نتيجة الفلسفة عدداً من القضايا الفلسفية، إنما هي توضيح للقضايا، فالفلسفة يجب أن تعمل على توضيح وتحديد الأفكار بكل دقة، وإلا ظلت تلك الأفكار معتمة ومبهمه¹³.

إنّ هذا التصور الذي يقدمه فتجنشتين Wittgenstein حول الفلسفة، هو ما سيعبر عنه أعضاء هذه الجماعة بأشكال مختلفة، فمثلاً آير Ayer يحدد موضوع ووظيفة الفلسفة قائلاً: "هي توضيح قضايا خطاب العلم بتبيين علاقاتها المنطقية وتحديد الرموز التي تشكلها"¹⁴، ما يلاحظ على مقولة آير Ayer، هو أنّ هذا الأخير يربط الخطاب الفلسفي بالخطاب العلمي، وبالتالي يجعل من الفلسفة تحليلاً لمنطق العلم، وبكونها فلسفة علمية، يقول كارناب Carnap في هذا الصدد: "تنصب أبحاث مدرسة فيينا على العلم، سواء باعتباره واحداً أو فروعاً مختلفة، إننا نقوم هنا بتحليل المفاهيم والقضايا والبراهين والنظريات التي تلعب فيه دوراً ما، مع العناية بالناحية المنطقية أكثر من الاهتمام باعتبارات التطور التاريخي أو الشروط الاجتماعية أو النفسية لتطبيقه، وإنّ هذا الميدان لم يحظ بعدُ بأية تسمية خاصة، وفي إمكاننا أن نطلق عليه نظرية العلم أو منطق العلم على الأصح¹⁵". ويضيف فيجل Feigl قائلاً: "تمركز نقاش الدائرة حول أسس المنطق والرياضيات، منطق المعرفة التجريبية وينحرف أحياناً فقط حول فلسفة العلوم الاجتماعية وفلسفة الأخلاق"¹⁶.

يتضح إذن أنّ التفكير الفلسفي عند مدرسة فيينا يقتصر على فحص اللغة التي تعبر بها العلوم فحصاً منطقياً، دون التطرق إلى جانبها التاريخي، وهذا يعني أنّ الوضعانيين الجدد يحاولون بهذا العمل القطع مع التراث الفلسفي الكلاسيكي والسائد كذلك، وبالتالي تشييد فلسفة جديدة ترفض الأمر القائل إنّ "الفلسفة هي تاريخ الفلسفة"، وتجعل من البحث المنطقي لقضايا العلم أولى أولوياتها، حيث جاء في بيان الحلقة أنّ "نظرة إلى الماضي تسمح لنا الآن أن نرى بوضوح ماهية النظرة العلمية الجديدة للعالم، بالتعارض مع التقليدية، فنحن لا نؤسس أية "عبارات فلسفية" بالمعنى الحقيقي، لا نفعل أكثر من توضيح العبارات، عبارات العلم التجريبي [...] فالكثير من ممثلي النظرة العلمية للعالم يرفضون بشكل مطلق استخدام كلمة "فلسفة" للإشارة إلى عملهم، وذلك للتأكيد بقوة على معارضتهم للفلسفة كنسق"¹⁷. كما يشدد ريشنباخ Reichenbach على الموقف نفسه بقوله: "[...] غير أنّ تاريخ الفلسفة لا ينبغي أن يعرض بوصفه مجموعة من الحقائق، ففي الفلسفة التقليدية من الخطأ أكثر ممّا فيها من الصواب، وبناء على ذلك فإنّ أصحاب العقول النقدية هم وحدهم الذين يمكن أن يكونوا

¹³ L.Wittgenstein, tractatus logico-philosophicus, 4.112, Ed, Gallimard, 1961, p.82.

¹⁴ A.Ayer, logical positivisme, P.20.

¹⁵ R.Carnap, le problème de la logique de la science, p.4.

¹⁶ H.Feigl, in: Jorgensen, the development of logical empiricism, p.3.

¹⁷ H.Hahn, O.Neurath, R.Carnap, " Conception scientifique du monde", in: A. soulez, manifeste du cercle de vienne et autres écrites, P.127.

مؤرخين أكفاء، أمّا تمجيد الفلسفات الماضية وعرض مختلف المذاهب كما لو كانت صيغاً مختلفة للحكمة، لكن منها الحق في أن يوصف بهذا الصفة، فإنه أدى إلى إضعاف المقدرة الفلسفية لدى الجيل الحالي، وهو قد شجع الطالب على أن يأخذ بالنسبية الفلسفية، ويعتقد بأنه لا توجد إلا آراء فلسفية، ولكن لا توجد حقيقة فلسفية. أمّا الفلسفة العلمية فإنها تحاول الابتعاد عن النزعة التاريخية والوصول، عن طريق التحليل المنطقي، إلى نتائج تبلغ من الدقة والإحكام والوثوق ما تبلغه نتائج العلم في عصرنا هذا، وهي تؤكد أنّ من الضروري إثارة مشكلة الحقيقة في الفلسفة، بالمعنى نفسه الذي تثار به في العلوم¹⁸.

ينطلق إذن التفكير الوضعاني الجديد من تسجيل موقف سلبي من الفلسفة كما هي متداولة ومن تاريخها، كما أنه يحاول بهذا العمل أن يختزل موضوع الفلسفة الوضعية الجديدة في التحليل المنطقي الصارم للغة العلم، وبهذا المعنى فإنّ هذا النمط من التفكير يحاول استبعاد الميتافيزيقا، وبالتالي تأسيس نظرية جديدة في المعنى تقطع مع التراث الفلسفي المتعلق بمجموعة من الأوهام والخرافات والأصنام التي تقيد الفكر، لأنّ هدف الميتافيزيقا هو عملية انتقاء الأفكار التي لم نستطع التوصل إليها عن طريق التجربة والخبرة الحسية.

لا سيما أنّ النظرة العلمية للعالم لا تتميز بطروحات خاصة، بقدر ما تتميز بموقفها الأساسي ووجهة نظرها واتجاه بحثها، فهي تهدف إلى العلم الموحد، وتسعى إلى ربط إنجازات الباحثين الخاصة في مختلف مجالات العلم وجعلها متناغمة، هذا الهدف يفسر التشديد على الجهود الجماعية، ويفسر أيضاً التشديد على ما يمكن استيعابه بطريقة تداوتية¹⁹.

3- التحليلي التركيبي والميتافيزيقي

لقد استمر مفهوم الميتافيزيقا بمعنى إيجابي، وازدهر في القرن السابع عشر بشكل لا مثيل له بالرغم من محاولات ديكارت Descartes، فيما يخص الميكانيكا والطبيعية، إلا أنه بقي كلاسيكياً فيما يخص الميتافيزيقا والإلهيات، وظهرت بالإضافة إلى ميتافيزيقا ديكارت ميتافيزيقا سبينوزا Spinoza، وميتافيزيقا لايبنتز Leibniz، وميتافيزيقا مالبرانش Malbranch... لكن مع مجيء القرن الثامن عشر بدأ هذا المفهوم في التدهور والانحطاط، وتحول إلى شيء سلبي وأصبح مدعاة للسخرية والتهكم، ويرجع السبب في ذلك إلى أنّ الأنساق الميتافيزيقية لم تتوصل إلى نتائج موحدة بخصوص المفهوم الواحد، وأنّ الميتافيزيقيين هم المسؤولون

¹⁸ هانز ريشنباخ، الفلسفة العلمية، ترجمة فؤاد زكريا، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ص ص 281-282

¹⁹ H.Hahn, O.Neurath, R.Carnap, « Conception scientifique du monde », in: A. Soulez, manifeste du cercle de vienne et autres écrites, P.115.

الحقيقيون عن غياب إجماع ما²⁰ حول الموضوعات والمسائل التي يعالجونها، إلا أنّ أقوى وأعنف نقد وجهه للميتافيزيقا في تاريخ الفلسفة هو نقد هيوم Hume، الذي قام بإعدام الأعمال الميتافيزيقية حرفاً، لنستمع إليه وهو يقول: "دعنا نسأل إذا تناولنا أي كتاب في الإلهيات أو الميتافيزيقا مثلاً، هل يحتوي على أي استدلال مجرد عن العدد أو الكم؟ كلا، هل يحتوي على أي استدلال تجريبي عن الواقع العقلي أو الوجود؟ كلا، فلنقذف به إذن في النار، لأنه لا يحتوي إلا على الوهم والسفسطة"²¹، ثم أضاف فتجنشتين Wittgenstein موقفه من الميتافيزيقا قائلاً: "إنّ معظم القضايا والأسئلة التي تعالج قضايا الفلسفة ليست كاذبة، وإنما لا معنى لها"²².

يتفق كلّ أنصار النظرة العلمية للعالم على رفض الميتافيزيقا سواء منها الواضحة أو المخفية وراء المذهب القبلي، لكنّ حلقة فيينا تدافع أكثر عن الأطروحة القائلة إنّ عبارات الواقعية (النقدية) والمثالية، حول واقعية أو لا واقعية العالم الخارجي [...] لها أيضاً طابع ميتافيزيقي، وذلك من حيث كونها معرضة للاعتراضات نفسها الموجهة إلى الميتافيزيقا القديمة: لا معنى لها، لأنها غير قابلة للتحقق، غير واقعية، ويكون واقعياً ما يمكن إدراجه في كامل بنيان التجربة²³.

وهكذا، لا يتغلب التحليل المنطقي على الميتافيزيقا فقط بالمعنى الخاص والكلاسيكي للكلمة، خاصة الميتافيزيقا السكولائية (المدرسية)، وتلك الخاصة بأنساق المثالية الألمانية، بل أيضاً على الميتافيزيقا المخفية في القبلية الكانطية الحديثة، ولا تقر النظرة العلمية للعالم بمعرفة صحيحة غير مشروطة، والتي تجد مصدرها في العقل الخالص، ولا "بأحكام تركيبية قبلية"، من النوع الذي نجده في أساس النظرية الكانطية في الإبستمولوجيا، وبالأحرى في كل أنطولوجيا وكل ميتافيزيقا قبل-وبعد كانطية²⁴.

لقد استلهم الوضعانيون الجدد كل أفكار الذين اعتبروهم وضعانيين، أمثال: ماخ Mach، هيوم Hume، وفتجنشتين Wittgenstein... وذلك ليؤسسوا نظرية في المعنى، حيث قسموا العبارات إلى قسمين: "عبارات سليمة التركيب" و"عبارات غير سليمة التركيب"، الأولى لها معنى والثانية لا معنى لها، وبالتالي تنتمي إلى مجال الميتافيزيقا، يقول كارناب Carnap المعادي للميتافيزيقا: "يمكن معرفة ما إذا كانت عبارة ما

²⁰ A.Soulez, Manifeste du cercle de vienne et autre écrits introduction, P.21.

²¹ D.Hume, Enquiry concerning the human understanding, edited by, L.A selby-bigge, Oxford, 1962, Sex, p.11.

²² L.Wittgenstein, Tractatus logico-philosophicus, 4003, P.71.

²³ H. Hahn, O.Neurath, R.Carnap, « Conception Scientifique du monde », in: A. Soulez, Manifeste du cercle de vienne et Autres écrits, p.118.

²⁴ Ibid, PP.117-118.

دالة قبل معرفة ما إذا كانت صادقة أو كاذبة²⁵. فالأساسي بالنسبة لـ كارناب Carnap ليس صدق أو كذب عبارة ما، ولكن المهم بل الأهم، هو هل لها معنى أم لا؟ لذلك حاول أن يقسم القضايا إلى ثلاثة أنواع: هناك القضايا التحليلية Analytiques والقضايا التركيبية Synthétiques، ثم القضايا الميتافيزيقية Métaphysiques التي لا معنى لها أو خالية من المعنى.

إنّ القضايا التحليلية يعتبرها كارناب Carnap قضايا لا معنى لها، لأنها لا تخبرنا عن وقائع التجربة الحسية، وفي الوقت نفسه ليست قضايا ميتافيزيقية، لكنها قضايا تحصيلية دائمة الصدق، بمعنى أنها تصدق كيفما كانت القيم الصدقية للقضايا الفرعية الداخلة في تركيبها، كقولنا: "إذا كنت أمشي، فأنا أمشي" أو "ب ← ب"²⁶. أما بالنسبة للقضايا التركيبية فهي قضايا الواقع، القضايا المرتبطة بالخبرة الحسية، والتي يقوم عليها كل العلم التجريبي.

إنّ هذا التمييز بين ما هو تحليلي وما هو تركيب²⁷ يعود بنا إلى تمييز ليبنز Leibniz بين "أحكام العقل" و "أحكام الواقع"، وتمييز كانط بين "الحقائق التحليلية" و "الحقائق التركيبية"، إضافة إلى تمييز هيوم Hume بين "علاقات الأفكار" و "علاقات الواقع".

فالأحكام التحليلية هي التي ينتمي محمولها إلى موضوعها، بحيث يتضمن المفهوم العام للموضوع محتوى، فيرتبط هذا بذاك ارتباط مطابقة وفقاً لمبدأ الهوية، ولذلك كانت هذه الأحكام أحكاماً توضيحية، فهي لا تضيف إلى الموضوع أي جديد بواسطة المحمول، بل تقتصر على تحليله، أي على تجزئته إلى المفاهيم الجزئية التي كانت تدرك داخل العبارة ولو بشكل غامض، فالقضية القائلة مثلاً: "كل جسم ممتد" قضية تحليلية، بمعنى أنّ المحمول "ممتد" متضمن في الموضوع "جسم"، لأنّ الامتداد ليس شيئاً آخر سوى مجرد تحليل لتصور الجسم، وبالتالي فنحن غير محتاجين للبحث خارج مفهوم "الجسم" لكي نجد معنى "الامتداد". أمّا الأحكام التركيبية فهي التي يضيف محمولها إلى موضوعها معنى جديداً لم يكن يشتمل عليه، وبالتالي لا يمكن استخلاصه منه بالتحليل، فالقضية القائلة مثلاً "كل جسم ثقيل" قضية تركيبية لأنّ المحمول فيها "الثقل - الوزن"

²⁵ رودلف كارناب، في البعزاتي (بناصر)، الاستدلال والبناء، المركز الثقافي العربي، 1999، ص 49

²⁶ بن ميس (عبد السلام)، قضايا في الإبستمولوجيا والمنطق، شركة النشر والتوزيع المدارس، 2000، ص 149

²⁷ يعتبر كارناب Carnap التمييز بين التحليلي والتركيب²⁷ تمييزاً منطقياً؛ أمّا التمييز بين القبلي والبعدي فهو تمييز معرفي إبستمولوجي، لكن ألا يدخل المنطقي في إطار ما هو إبستمولوجي؟

متميز عن الموضوع، ولا يمكن استنتاجه منه بالفعل، كما هو الشأن في "الامتداد" بل نحصل عليه باللجوء إلى التجربة.²⁸

هناك إذن في نظر هذه المدرسة الفلسفة المنطقية نوعان فقط من المعارف المشروعة: معارف ترتبط بصور الفكر ومنشآت اللغة، ومعارف ترتبط بظواهر الواقع ومعطيات التجربة، وبما أنّ هذا النوع الأخير، أي المعارف العلمية، يرتد في نهاية الأمر إلى ما نقوله عن الأشياء الواقعية، فإنه من الضروري إخضاع لغتنا، أي حديثنا عن الأشياء، لتحليل منطقي صارم، حتى تعبر عما تقدمه لنا "محاضر" التجربة، من غير زيادة أو نقصان، ومن هنا يصبح موضوع الفلسفة، لا الأشياء نفسها، بل الكيفية التي نتحدث بها عنها، مما سيجعل منها "فلسفة علمية: تحليل لغة العلم، لا بل "منطقاً للعلم".²⁹

إنّ اختلاف المنطلقات الفلسفية، وكذلك تراكم التطورات العلمية، كثيراً ما يلعب دوراً أساسياً في تباين وجهات النظر في الحكم على القضايا والموضوعات، فلكل نظريته بل منظاره الإبيستيمولوجي، الذي ينظر به إلى الأشياء والأمور، وهذا ما ينطبق فعلاً، على موقف كارناب Carnap مثلاً، حينما يختلف عن مجموعة من المواقف الكلاسيكية والمعاصرة له، فمثلاً يختلف عن موقف كانط Kant، ميل Mill، وكواين Quine، في اعتباره أنّ عبارات الرياضيات تحليلية قبلية، حيث يقول إنّ: "عبارات الرياضيات تحليلية ليست عبارات تركيبية قبلية [...]" العبارات الرياضية ليست تجريبية، ولا تركيبية قبلية، بل تحليلية³⁰. أما كانط Kant، فقد تحدث على أنّ عبارات الرياضيات تركيبية قبلية³¹، في حين نجدها تركيبية بعدية عند ميل Mill، أي أنّ أصولها تجريبية، لكنّ كواين Quine يعتبرها تحليلية قابلة للمراجعة، بمعنى أنه يمكن إعادة النظر حتى في أسس الرياضيات والمنطق، ولا وجود لحكم غير قابل للمراجعة، "فحتى مراجعة قانون الثالث المرفوع المنطقي قد طرحت كوسيلة لتبسيط الميكانيكا الكلاسيكية، فما هو الفرق من حيث المبدأ بين مثل هذه النقلة، وبين النقلة التي تجاوز بها كبلر Kepler بطليموس Ptolémée، أو اينشتاين Einstein، نيوتن Newton، أو داروين Darwin أرسطو Aristote؟"³². فالمنطق الأرسطي- السكولائي غير ملائم، "وحده المنطق الرمزي الحديث "نظرية المنطق" ينجح في التوصل إلى الدقة الضرورية لتعريفات المفاهيم والعبارات، وإلى صورة

²⁸ S.chauvier, « Analytique, in: Encyclopédie des notions philosophiques, PUF 1996, P.92.

²⁹ الجابري (محمد عابد)، مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة 3، 1994، ص 28

³⁰ رودلف كارناب، في: البعزاتي (بناصر)، الاستدلال والبناء، ص 63

³¹ يشير كارناب Carnap، في كتابه: les fondements philosophique de la physique، إلى أنّ أسباب اعتبار كانط Kant، أنّ عبارات الرياضيات "تركيبية قبلية" ترجع بالأساس إلى أنّ كانط Kant اعتمد على الهندسة الأوقليدية، التي تتوافق والحدس، كما أنّ الهندسات الأوقليدية لم تظهر بعد في حياته، إضافة إلى أبحاث راسل Russel ووايتهد Whitehead في الرياضيات، وكذلك أعمال هيلبرت Hilbert.

³² V.W Quine, From a logical point of View, ed, Harvard University Press, Cambridge, 2nd edition (revised), 1962, (First published 1953). p.43.

عملية الاستدلال الحدسية للفكر العادي، هذا يعني وضعه بشكل دقيق، وضبطه أوتوماتيكياً بواسطة آلية العلامات³³.

إنّ أيّ تعارض مع التجربة يعني بالضرورة إعادة النظر في ترتيب العلاقات بين أحكامنا ومبادئنا من جهة، وبين التجربة من جهة أخرى، وينتج عن ذلك ظهور أحكام جديدة وعلاقات جديدة، تتفق وتساير العلاقات المنطقية الداخلية للنسق العلمي العام، وكذا التنبؤات المفترضة، لا سيما أنّ كواين Quine يتحدث عن العلم بكامله باعتباره وحدة عضوية، يمكن لكل عناصرها أن تكون قابلة للمراجعة، حيث يقول: "لا حكم يمتنع عن المراجعة"³⁴، سواء داخل العلوم الصورية أم التجريبية، ويقول في هذا الصدد: "إنّ القوانين الرياضية والمنطقية ليست خارج دائرة المراجعة"³⁵: فلا ينبغي أن نفهم من المراجعة، أنها تعني فقط الإبطال والنفي والإبعاد، بل تعني كذلك الإضافة والتعديل والتدقيق، فالمراجعة في العلم التجريبي، تختلف عن المراجعة في العلوم الصورية، فلكل مراجعة آلياتها، ووجهات النظر التي تنطلق منها.

إنّ هذه النظرة التي تتبناها حلقة فيينا بخصوص الميزة التحصيلية للرياضيات، والتي تستند إلى أبحاث راسل Russel وفيتجنشتاين Wittgenstein، لا تتعارض فقط مع القبلانية والحدسانية، بل أيضاً مع التجريبانية القديمة (مل Mill مثلاً)، التي أرادت اشتقاق الرياضيات والمنطق بطريقة تجريبية واستقرائية نوعاً ما³⁶.

في الواقع، إنّ التوضيح المنطقي للمفاهيم والعبارات والمناهج العلمية، يحرر من الأحكام المسبقة المكبوتة، إنّ التحليل الخاص بالمنطق ونظرية المعرفة، لا يريد فرض قيود أو حدود على البحث العلمي، بل على العكس، يقدم له أكمل مدى ممكن من الإمكانيات الصورية ليختار من بينها تلك التي تتفق بشكل أفضل مع كل معطى تجريبي (مثلاً، الهندسات الإقليدية والنظرية النسبية)³⁷.

كما أنّ كارناب Carnap يوضح أنّ عبارات الميتافيزيقا غير سليمة التركيب، وبالتالي فهي لا تنتمي إلى العبارات التحليلية، ولا إلى العبارات التركيبية، يقول: "إذا كانت قضايا الميتافيزيقا، كما نرى، أشباه-

³³ H. Hahn, O.Neurath, R.Carnap, « Conception Scientifique du monde », in: A. Soulez, Manifeste du cercle de vienne et Autres écrits, p.119.

³⁴ V.W Quine, From a logical point of View, P.43.

³⁵ V.W. Quine, Methods of logic (1952), Routledge and Kegan Paul, London and Henley, 1978, p.3.

³⁶ H. Hahn, O.Neurath, R.Carnap, « Conception Scientifique du monde », in: A. Soulez, Manifeste du cercle de vienne et Autres écrits, p.121.

³⁷ Ibid, P.128.

قضايا فلن يكون بإمكان الميتافيزيقا أن تتكون مطلقاً في لغة ذات بناء سليم على ضوء علاقة منطقية، إننا نفهم كل الأهمية التي يكتسبها العمل المنجز من قبل المناطق، في أفق بناء صارم وتام³⁸.

هناك إذن حد فاصل وواضح جداً يظهر بين نوعين من العبارات المصاغة بواسطة العلم التجريبي، وهذه يمكن استنتاج معناها بالتحليلي المنطقي، أو بتحديد أكثر بالعودة إلى العبارات الأكثر بساطة، التي تحمل على المعطى التجريبي، أما العبارات الأخرى، ومن ضمنها تلك التي ذكرنا أعلاه، فتتكشف باعتبار أنه ليس لها معنى، وذلك إذا أخذت بالمعنى الذي يقصده الميتافيزيقي³⁹.

إلا أن مسألة التمييز بين التحليلي والتركيب، لقيت انتقاداً شديداً من طرف كواين Quine. فهذا الأخير يقول إنه ليس هناك انفصال تام بين القضايا التحليلية والقضايا التركيبية، وإن كل المحاولات السابقة كانت فاشلة في تناول هذه الفكرة.

يرى كواين Quine، أن هناك فئتين من العبارات التحليلية: الفئة الأولى تكون عباراتها صادقة منطقياً، مثل "لا رجل غير متزوج متزوج" ونرمز لها بـ (1)، وميزة هذه الفئة أنها تبقى صادقة عند كل إعادة تأويل لكلمتي "رجل" و"متزوج"، وهناك الفئة الثانية من العبارات التحليلية مثل "كل أعزب غير متزوج: ونرمز لها بـ (2)، وميزة هذه العبارة، تكمن في إمكان تحويلها إلى حقيقة منطقية، وذلك باستبدال الكلمات بمرادفاتها، وهكذا تتحول العبارة (2) إلى العبارة (1)، وذلك بوضع "رجل غير متزوج" مكان مرادفها "أعزب".

ولكن في الوقت الذي لا يوجد أي مشكل بالنسبة للعبارات من الفئة الأولى، رأى كواين Quine أن الفئة الثانية تفترض فكرة "الترادف" التي تحتاج بدورها إلى تفسير وتعريف، لأنها لا تقل غموضاً عن فكرة "التحليلية" التي نرغب في تفسيرها⁴⁰. فالصعوبة الرئيسية لا تكمن في الفئة الأولى من العبارات، الحقائق المنطقية، بل في الفئة الثانية، تلك التي تتوقف على فكرة الترادف⁴¹. إلا أن ما تقوله النظرية التحقيقية للدلالة، هو أنه تكون عبارات مترادفة، إذا وفقط إذا كانت متشابهة، من وجهة منهج تصديقها أو إثباتها التجريبي⁴².

³⁸ R.Carnap, la Science et la métaphysique devant l'analyse logique du langage, 1931, traduction de l'Allemand par E.vouillemin, Hermann et cie, Paris, 1934, P.23.

³⁹ H. Hahn, O.Neurath, R.Carnap, « Conception Scientifique du monde », in: A. Soulez, Manifeste du cercle de vienne et Autres écrits, p.116.

⁴⁰ V.W Quine, From a logical point of View, P.23.

⁴¹ V.W.O.Quine, « les deux dogmes de l'empirisme », in: P.Jacob, De Vienne à cambridge, éd, Gallimard, Paris, 1980, P.91.

⁴² Ibid, P.104.

إنّ كواين Quine في محاولته تفسير فكرة التحليلية عن طريق الترادف والتعريف، وصل إلى نتيجة أساسية مفادها أنه أصبح من الخطأ البحث عن خط فاصل بين العبارات التركيبية التي تقوم على التجربة الحادثة، والعبارات التحليلية التي تكون صادقة في كل الظروف (العوامل)، ويمكننا دائماً حفظ حقيقة أية عبارة، مهما كانت الظروف، يكفي إنجاز تعديلات فعالة في أماكن أخرى من النسق⁴³.

لكن ما يميز موقف كواين Quine، هو خلطه بين خصوصيات اللغة الطبيعية واللغة الصورية الاصطناعية، ويتجلى ذلك من خلال مقولتي الترادف والتعريف، ومحاولة تطبيقهما على اللغة الطبيعية، وتعميمهما حتى على اللغة الصورية، فشتان بين اللغتين.

4- معيار القابلية للتحقق وآفاقه

إذا كان الوضعانيون الجدد في محاولاتهم لطرد الميتافيزيقا من مجال البحث الفلسفي عن طريق التحليل المنطقي للغة العلم، فإنهم بهذا المعنى وضعوا استراتيجية جديدة تمكنهم من القطع مع التقاليد الفلسفية السابقة، والاستفادة من بعض النماذج الفلسفية ومن روحها النقدية، ليؤسسوا معياراً جديداً أو مبدأ جديداً يقوم عليه مشروعهما الفلسفي والإبستمولوجي، وهو مبدأ القابلية للتحقق فما المقصود بهذا المبدأ؟ وما هي حدوده وآفاقه الإبستمولوجية والفلسفية؟

إنّ الحديث عن مبدأ التحقق لدى الوضعانيين الجدد لا ينفصل عن الإطار العام الذي تتحرك فيه أفكار الوضعانية الجديدة بكل تمفصلاتها، فمبدأ التحقق هو الخيط الرابط لكل أفكار هذه المدرسة ومحركها الأساسي، ويصاغ هذا المبدأ من طرف شليك Schlick بالقول التالي: "إنّ معنى أي قضية هو منهج تحققها"⁴⁴، هنا يربط شليك Schlick بين مبدأ التحقق والمعنى، وبالتالي يصبح مبدأ التحقق منتجاً للمعنى؛ كما يتابع وايزمان Weizmann الفكرة نفسها قائلاً: "يكمن معنى أي قضية في الطريقة التي تتحقق بها، فالمعنى ذاته يكون منهجاً للتحقق"⁴⁵.

فإذا كان معيار التحقق قد وضع من أجل التمييز بين القضايا التي لها معنى والقضايا التي لا معنى لها، فإنّ القضايا التي لها معنى تكون لها إما دلالة معرفية وإما دلالة تجريبية، وتكون عبارة ما لها دلالة معرفية، أو

⁴³ Ibid, P.109.

⁴⁴ M.Schlick, "Meaning and verification", in: O.Hanfling, Essential readings in logical positivism, oxford, basil Blackwell,1981, P.34.

⁴⁵ F.Waismann, "Meaning and verification", in, O.Hanfling, Essential readings in logical positivism, oxford, Basil Blackwell, 1981, P.27: "the sense of a proposition is the way it is verified sense itself is a method by verification".

نقول إنها تحتل الصدق أو الكذب، إذا كانت تحليلية أو تناقضية. وفي هذه الحالة يكون المعنى منطقياً خالصاً؛ وتكون عبارة ما لها دلالة تجريبية، إذا كانت مقبولة في مواجهة اختبار تجريبي ما⁴⁶.

إنّ هذا التصور العام للدلالة المعرفية، كان المسؤول عن إخراج التفسيرات الميتافيزيقية من ميادين الدلالة المعرفية والتجريبية. لتكن ب عبارة مركبة، لها قيمة صدقية من خلال متغيراتها وثوابتها القسوية، ولنفترض أن ب₁ إحدى متغيرات هذه العبارة ب، أي أنها قضية ذرية، فإذا كانت ب₁ خالية من المعنى حسب معيار الدلالة المعرفية، فإنّ العبارة ب خالية من المعنى، أي ليس لها قيمة صدقية معينة، ويمكن أن نستنتج حسب هذا المعيار أنه:

1- إذا كانت ب عبارة خالية من المعنى، حسب معيار الدلالة المعرفية فإن ب (نفي ب) سيصبح أيضاً خالياً من المعنى.

2- إذا كانت د عبارة خالية من المعنى، وحسب معيار الدلالة المعرفية، فإنّ (ج \equiv د)، وكذلك (ج د) ستكونان خاليتين من المعنى (مهما كانت ج سواء كانت لها دلالة أم لا).

أما بالنسبة لمعيار الدلالة التجريبية فيجب أن يحدد بدقة العلاقة الموجودة بين فرضية ما أو عبارة، أو كثير من العبارات الملاحظة. ففي كل مرة، نجد الظواهر الموصوفة بواسطة هذه العبارات الملاحظة، تثبت الفرضية المتساءل حولها. وإنّ قدرة عبارة ما معطاة للحفاظ على هذه العلاقة مع مجموعة العبارات الملاحظة، تميز أولاً مبدأ قابليتها للاختبار، ثم دلالتها التجريبية.

بناء على ما سبق يحدد هامبل Hempel معيار التحقق بالقول التالي: "تكون عبارة ما لها دلالة تجريبية، إذا وفقط إذا كانت منطقياً غير تحليلية وغير تناقضية، وإذا كانت منطقياً مستنبطة من فئة محددة من عبارات ملاحظة"⁴⁷.

ويمكن أن يصاغ كما يلي: تكون العبارة ب، لها دلالة تجريبية، فقط إذا كانت تشير إلى مجموعة من العبارات الملاحظة م₁، م₂... م₃، بحيث تتضمن حقيقة هذا العبارات الملاحظة بالضرورة، حقيقة العبارة ب.

⁴⁶ C.Hempel, "les critères empiristes de la signification cognitive: problèmes et changements", in: P.Jacob, De vienne à Cambridge, éd, Gallimard, Paris, 1980, P.61.

⁴⁷ Ibid, P.61.

ويجب أن نشير إلى أنه ليس من الضروري أن تكون هذه العبارات الملاحظة صادقة، لأنّ ما يحاول هذا المعيار أن يفسره هو القابلية للاختبار بواسطة "الظواهر الملاحظة بالقوة" أو القابلة للاختبار "كمبدأ"⁴⁸.

إنّ حد "القابلية للتحقق" يشير إلى فعل سلطة المعرفة، أو بالأحرى الإمكانية المنطقية من نوع الملاحظة، التي إذا كانت متاحة فعلاً فإنما ستكون دليلاً للعبارة المتساءل حولها.

إنّ مبدأ القابلية للتحقق يمكن من تقرير ما إذا كانت فرضية ما، تستحق أن تؤخذ بعين الاعتبار وتناقش داخل مادة علمية ما، أو يجب أن ترفض كمنتمي إلى شكل آخر من المعرفة: الميتافيزيقا، التولوجيا... ويمكن لفرضية قابلة للتحقق أن تواجه الوقائع، هذا يعني أنه من الممكن بوضوح رؤية ما إذا كانت الفرضية نفسها، أو بعض النتائج التي استنبطت منها منطقياً، أن تكون في اتفاق أو عدم اتفاق مع وقائع محددة، والتي إما تعززها أو تنفيها... فالنظرية التحقيقية للدلالة تثبت أنّ عبارة ما، لا يكون لها معنى، إلا إذا كانت مبدئياً غير قابلة للتحقق تجريبياً⁴⁹.

إنّ مجموعة من الإجراءات تمكننا من مراقبة حقيقة فرضية ما: - صورياً، تنطبق على تماسك عمليات الحساب، وتؤسس عبارة ما أو نظرية ما، من وجهة نظر تركيبها. - وتجريبياً، هي مجموع العمليات التي تمكننا من مواجهة عبارة ما أو نظرية ما مع وقائع تقرر صدقها أو كذبها⁵⁰.

إنّ معيار القابلية للتحقق يمكن من التمييز بين العلم والميتافيزيقا، ولكن أيضاً يمكن من استخلاص تفاهة (لا جدوى) العبارات الميتافيزيقية: إنها مبدئياً غير قابلة للتحقق، إنها أيضاً خالية من المعنى، ويجب أن تحذف من حياتنا الفكرية⁵¹، وهذا يعني أنّ "الوضعانيين المناطقة يطابقون معنى قضايا- الواقع مع قابليته للتحقق [...]" وأنّ قضايا الواقع التي لا يمكن أو تصدق أو تكذب، طبقاً لهذه النظرة، تكون لا معنى لها⁵².

حسب هذا التصور الوضعاني، فإنّ اللغة التي تحيل إلى العالم الخارجي هي التي ينطبق عليها معيار التحقق، وبالتالي تكون ذات دلالة، فإذا كان العالم يرد إلى وقائع فإنّ القضايا ترد إلى وحدات لغوية مفردة.

⁴⁸ Ibid, P.61.

⁴⁹ M.Gagnon, « vérifiabilité », in: Encyclopédie des notions philosophiques, PUF, 1996, P.2711.

⁵⁰ B.Kahn, « vérification », in: Encyclopédie des notions philosophiques, PUF, 1996, PP.2711-2712.

⁵¹ M.Gagnon, « vérifiabilité », in: Encyclopédie des notions philosophiques, p.2711.

⁵² J.Joergensen, The development of logical empiricism, vol.2 N°9, the University of Chicago press, 1951, P.71.

ويرى كارناب Carnap أن لكل وحدة لغوية مدلولاً ما، ولكن بعض الوحدات يتغير مدلولها أثناء التطور التاريخي، وبعضها الآخر يفقد مدلوله القديم، من دون أن يكتسب آخر جديداً، ومنها ما يشحن بدلالات أخرى مناقضة للدلالة الأصلية.

إلا أن كارناب Carnap حاول أن يؤسس لغة "نظيفة" من كل الشوائب الميتافيزيقية، لغة واضحة، بالإضافة إلى كونها تتكون من وحدات عبارة عن ذرات، وترتبط فيما بينها ارتباطاً دقيقاً ومتماسكاً، تكون المنطلق الأساسي لبناء علم موحد. علم يتأسس على التجربة بلغة فيزيقية موحدة. هذه اللغة أساسها عبارات بعيدة عن الجدل الميتافيزيقي، تُسمى بـ "العبارات العيانية" أو البروتوكولية Protocollaires، ومن بين هذه العبارات هناك مثلاً: "هذه طاولة"، "إنه أحمد"، "يهطل المطر" ويسمى كارناب Carnap كذلك عبارات الملاحظة، أو العبارات الأساسية أو الأولية، لكونها مرتبطة بالملاحظة، أو التجربة بشكل عام. وتشكل أساس العلم الموحد الذي تطمح إلى بنائه جماعة فيينا، هذا العلم يكون منطلقه التجربة، وتعتبر العبارات العيانية تقاريره التي تحتمل إحدى القيم الصدقية (الكذب أو الصدق).

وبشكل عام، تعتبر عبارة ما عيانية إذا كانت تعبر بشكل مباشر عن معطيات الملاحظة وتبلغ عن أحوال العالم الخارجي. وقد تحدث كارناب Carnap عن الشروط التي يجب توفرها لكي يكون لكلمة ما مدلول معين، وحدد هذه الشروط فيما يلي:

أولاً: الشكل الذي ترد به الكلمة في أبسط صورة لقضية، مثلاً أبسط صورة لقضية ترد فيها كلمة "حجر"، هو: "س هو حجر"، بحيث يمكن استبدال (س) بشيء مثل الألماس، الذهب... أي أنه في هذا الشرط يجب تثبيت نحو الكلمة.

ثانياً: يجب أن يكون من الممكن تقديم جواب بخصوص السؤال عن العبارة ب، المتضمنة للكلمة موضع البحث، ويمكن صياغة هذا السؤال بطرق مختلفة:

- 1- مم استنبطت العبارة ب؟ وما هي العبارات التي استنبطت من العبارة ب؟
- 2- في أية شروط يجب أن تكون العبارة ب صادقة؟ وفي أية شروط يجب أن تكون العبارة ب كاذبة؟
- 3- ما هو المعنى الذي تختص به العبارة ب؟⁵³

⁵³ R.Carnap, " le dépassement de la métaphysique par l'analyse logique du langage », in: A. soulez, Manifeste du cercle de vienne et autres écrits, p.157.

بمعنى آخر، تماشياً مع طرح كارناب، فمدلول كلمة ما يرتبط أساساً بمبدأ القابلية للتحقق، وهو المبدأ الذي يقر بأن دلالة عبارة ما تتحدد بشروط تحققها، أي أنّ هناك شروطاً ممكنة تحدد صدق هذه العبارة أو كذبها.

ففي المجال العلمي وبالنسبة للمصطلحات العلمية، لكي نحصل على مدلول مصطلح معين، مثلاً "الفقرات"، يجب أن نردها إلى كلمات أخرى، ويمكن تحديد هذا المصطلح بالقول إنّ "الفقرات هي حيوانات لها عمود فقري"، وبالتالي تستوفي الشروط التي حددها كارناب Carnap سابقاً. وبهذه الطريقة ترد كل كلمة في اللغة إلى كلمات أخرى تؤلف ما يسمى بالعبارات العيانية (البروتوكولية)، ومن خلال عملية الرد يمكن أن تكتسب الكلمة دلالتها، إذن فالعبارات العيانية هي عبارات الواقع (تحدث عن الواقع)، وبالصورة اللسانية نفسها التي للعبارات الأخرى حول الواقع⁵⁴.

إلا أنّ هناك مجموعة من الأسئلة تطرح علينا، من قبيل ماهي بالضبط العبارات العيانية؟ وما علاقة العبارات العيانية بالواقع؟ وماذا يعني الواقع؟ هل الواقع هو المعطى الحسي المباشر؟ هل تكفي الحواس لإبلاغنا عن معطيات التجربة؟ وهل تقارير الملاحظة نسخ صادقة لما يجري في الواقع؟ وما نصيب الملاحظ داخل هذه التقارير؟ ولماذا يتم التوقف عند حدود هذه العبارات؟ ألا يمكن الحديث عن أنّ لكل عبارة عيانية عبارة عيانية أخرى؟

إنّ هذه الأسئلة وأسئلة محايدة لها، تكشف بالفعل عن صعوبة الحديث عن عبارات عيانية مؤسسة للعلم الموحد، وتكون المنطلق الأساسي والأولي له، هذا ما يفسره قول كارناب Carnap، نتيجة للمواقف النقدية المختلفة من داخل الحلقة، خصوصاً موقف نويرات Neurath، يقول كارناب Carnap: "إنه بالنظر إلى أهدافنا، من الممكن أن نتجاهل تماماً السؤال عن مضمون العبارة الأولية وصورتها (العبارة البروتوكولية)، والذي لم تتم الإجابة عنه بشكل محدد لحد الآن [...] وبغض النظر عن تنوع الآراء، فمن المؤكد أنّ تسلسلاً من الكلمات لا يكتسب مدلولاً أقلّ إلا إذا تمّ تثبيت علاقات استنباطه انطلاقاً من العبارات العيانية، مهما تكن طبيعة هذه العبارات العيانية، وبالمثل يقال لكلمة إنها ذات دلالة إذا أمكن رد العبارات التي ترد فيها إلى عبارات عيانية"⁵⁵.

⁵⁴ O.Neurath, « Enoncés protocolaires », in: A soulez Manifeste du cercler de vienne et autres écrits, P.224.

يعتبر كارناب Carnap أنّ العبارات العيانية لا تحتاج إلى تصديق.

⁵⁵ R.Carnap, « Le dépassement de la métaphysique par l'analyse logique du langage », in: A.soulez, Manifeste du cercle de vienne et autres écrits, P.158.

إنّ دعاوى كارناب Carnap بخصوص مسألة العبارات العيانية، والتي يسميها "اللغة الأولى" وأيضاً "لغة المعيش" أو "اللغة الظاهرية"، واجهت نقد نويرات Neurath، ليس فقط بخصوص إمكانية وجود لغة نقية مطهرة من كل الشوائب الميتافيزيقية، بل حتى إمكانية وجود عبارة أولية أو أساسية أو عيانية، ينبني عليها العلم الموحد، يقول نويرات Neurath "لا توجد طريقة لجعل عبارات نظيفة متينة تماماً كنقطة انطلاق للعلوم. لا توجد صفحة بيضاء، نحن بمثابة بحارة ملزمين بإصلاح سفينتهم فوق البحر المفتوح، بدون إمكانية تجزيء السفينة ولا بنائها بعناصر جديدة. وحدها الميتافيزيقا تتمحي بدون فائدة"⁵⁶.

يتبين من خلال هذه المقولة، وبوضوح، استحالة الانطلاق من العبارات العيانية⁵⁷، فنحن ضحايا اللغة، لا يمكننا تصور درجة الصفر للغة، لأنّ هذه الأخيرة مؤسسة اجتماعية وثقافية، تتداخل فيها كل الأشكال الرمزية للإنسان، والتفكير في اللغة لا يتم إلا من داخل اللغة نفسها، وبمختلف الوسائل والإمكانات التي تتيحها لنا، ومسألة "تأسيس" نسق لغوي مجرد من كل هذه الأشكال الرمزية يكون مطبوعاً بخلفيات فلسفية وإيديولوجية ضيقة، لا تتيح المجال لتفاعل كل العناصر التي يقتضيها السياق الثقافي.

لقد نحت التجريبيون المناطق مفهوم "العبارات العيانية" كامتداد وكترسوخ لسؤالهم الفلسفي والإبيستيمولوجي العام حول الدلالة، وذلك لإنتاج "فلسفة علمية" تتجاوز كل الفلسفات التقليدية، فكان مفهوم العبارات العيانية تعبيراً عن الواقع وعن المعنى، أمّا العبارات غير- العيانية فهي قضايا الميتافيزيقا الخالية من المعنى، والتي يجب استبعادها وإقصاؤها من مجال "الفلسفة العلمية"، لا سيما، أنّ هذه العبارات غير- العيانية تحايط في وجودها العبارات العيانية. إلا أنّ أعضاء حلقة فيينا حاولوا بكل الجهود كشفها وإخضاعها لمطرقة المنطق وسندان الواقع.

وعلى هذا الأساس أخذ كارناب Carnap الحد الميتافيزيقي "مبدأ"، بالمعنى الأنطولوجي أي مبدأ الكائن وليس بالمعنى المعرفي الأكسيوماتيكي، واعتبر أنّ كلمة "مبدأ" يستعملها الميتافيزيقيون لمعرفة مبدأ الكائن، أو مبدأ الوجود، حيث يجيبون بأنه العدد، الصورة، الحركة، الحياة، الروح، الفكرة، اللاوعي، الفعل، الخير... والملاحظ هو كثرة المرادفات الغامضة، ولا يستطيعون مطلقاً أن يقولوا: في شروط معينة يمكن للحكم "س هو مبدأ ب" أن يكون صادقاً أو كاذباً، بمعنى أنّ له معنى، والسبب في رأي كارناب Carnap يعود إلى أصل كلمة "مبدأ" Principium ومرادفها اليوناني 9pxri، الذي خضع لتطورات تاريخية، وبالتالي فقد معناه الأصلي "بداية"، ولم يعد يعني ما هو بدئي زمنياً أي من الناحية الزمنية، بل ما هو سابق من نواحي أخرى

⁵⁶ O.Neurath, « Enoncés protocolaires », in: A soulez Manifeste du cercler de vienne et autres écrits, P.223.

⁵⁷ على أساس نقد نويرات Neurath، أقر كارناب Carnap بأنه لا توجد عبارات أولية بصورة مطلقة لبناء العلم.

ميثافيزيقية تماماً، من دون أن يحدد تعريف واضح لهذه "الناحية الميثافيزيقية". إذن جردت الكلمة من معناها السابق، دون أن تشحن دلاليًا من جديد، حيث بقيت فارغة من المعنى، وهذا ما يمكن أن نقوله عن الكلمات الميثافيزيقية الأخرى: الله، الفكرة، المطلق،...⁵⁸.

وفي السياق نفسه، قام هانز هان Hans Hahn بتحليله لمقولة "الأشياء المستحيلة"، "الزمن"، "الشيء في ذاته"، و"المكان"، اعتماداً على استراتيجية "نصل أوكام"، حيث تم استبعادها، وإقصاؤها، باعتبارها مفاهيم ميثافيزيقية. وحسب لغة Hahn فإن هذه المفاهيم لا تنتمي إلى مجال الفلسفة الموجهة نحو العالم، المؤسسة كلياً على العالم الذي يعطى لنا من خلال الحواس، بل تنتمي إلى مجال الفلسفة المنحرفة عن العالم، والتي تعتبر العالم الحسي ك وهم وكذب.⁵⁹

إنّ هذا الانطلاق من التجربة، كأساس لبناء نظرية في الدلالة والمعنى له مبرره، ويتمثل في السياق الثقافي السائد في بداية القرن الماضي، والذي تميز بسيادة الفلسفة المثالية الألمانية بمختلف تلويناتها، إضافة إلى التراكمات التاريخية للاتجاهات التجريبية، وكذلك أسئلتها الإبستمولوجية والفلسفية.

هذه الأسئلة حاولت التجريبانية أن تعيد صياغتها على ضوء ما استجد في مجال العلوم التجريبية والرياضية والمنطقية، من أجل بناء فلسفة متميزة عن الفلسفات الأخرى، كما أنها خلّخت بعض المفاهيم الكلاسيكية، وأنتجت مفاهيم أخرى جديدة.

إلا أنّ المتتبع لإنتاجات التجريبانيين سيخلص إلى حقيقة مفادها أنّ الإطار العام الذي تتحرك فيه هذه النزعة، يهدف بالأساس إلى استبعاد وإقصاء "الميثافيزيقا"، عن طريق إنتاج مبدأ للدلالة، تغيرت صيغته باستمرار، نتيجة تجدد واستمرار الصعوبات المواجهة له، سواء من داخل الحلقة أو من خارجها.

فقد تمظهر في أول الأمر في مطلب التحقيق أو القابلية للتحقق، بمعنى أنّ دلالة قضية معينة مرتبط بقابليتها لاختبار تجريبي، وبواسطة هذا المعيار تمّ فصل القضايا العلمية- التجريبية عن القضايا التحليلية- القبلية (المنطق والرياضيات)، وأيضاً قضايا الواقع عن قضايا الميثافيزيقا.

⁵⁸ R.Carnap, « Le dépassement de la métaphysique par l'analyse logique du langage », in: A.soulez, Manifeste du cercle de vienne et Autres écrits PP.160-162.

⁵⁹ H.Hahn, « Entités superflues (le Rasoir d'Occam) », in: A.Soulez, Manifeste du cercle de vienne et autres écrits, P.201.

وقد عدلت هذه الصيغة لمعيار الدلالة نتيجة الصعوبات التي واجهتها، وذلك من خلال هذا الفصل التام بين ما يتحقق وما لا يتحقق، أي بين المعنى واللامعنى، فمبدأ القابلية للتحقق يقضي من دائرة الدلالة القوانين العلمية، لأنه لا يمكن ردها إلى تقارير الملاحظة، أو بلغة الوضعانيين لا يمكن اشتقاقها من عبارات عيانية.

فنظرية اينشتاين Einstein في الفيزياء كانت على درجة عالية من التجريد، وبعيدة جداً عما يمكن مشاهدته، وقد اعترض بيكون Bacon على النظام الكوبرنيكي الفلكي، لأنه لا يتفق مع ما تقدمه الحواس، وهل يمكن أن نستنتج أن هذه النظريات ليس لها معنى؟

من خلال ما سبق تأكد لنا عقم معيار التحقق في مسألة الدلالة، وتمّ تعديله بمبدأ القابلية للتصديق comfirmability، حيث تكون الفرضية أكثر أو أقل تصديقاً أو دحضاً بواسطة الدليل⁶⁰.

يشدد كارناب Carnap، من خلال مقاله "القابلية للاختبار والدلالة" على أهمية التمييز بين الصدق والتصديق، فحينما يكون الصدق مفهوماً مطلقاً مستقلاً عن الزمن، فإنّ التصديق يكون مفهوماً نسبياً، ويشدد بوبر من خلال كتابه: "منطق الكشف العلمي" على ضرورة التمييز بين مختلف "درجات القابلية للاختبار"، وأنّ هذه الدرجات تتغير بتطور العلم في أي وقت معلوم.

ورغم هذا الاستبدال لمبدأ التصديق مكان مبدأ التحقق، فإنّ معاول النقد بقيت مستمرة خصوصاً من طرف بوبر Popper، الذي رفض هذا التعديل، إذ يقول: "[...] قابلية التصديق والتصديق، عند كارناب Carnap هما فقط تأويلات مخففة قليلاً لمبدأ قابلية التحقق والتحقق، والسبب الذي من أجله لا تكون القوانين الكلية قابلة للتحقق، هو نفسه السبب الذي يجعلها غير قابلة للتصديق"⁶¹.

في هذا الإطار دائماً حاول هامبل Hempel أن يعبر عن مطلب التحقيق بمطلب آخر، وهو مطلب التعريف أو القابلية للتعريف، حيث يقول: "يجب أن يكون كل حد ذي دلالة تجريبية قابلاً للتعريف بواسطة حدود الملاحظة"⁶². وهذا المبدأ قاصر على أن يعبر عن مجموعة من المفاهيم العلمية التي لا يمكن تعريفها بشكل مباشر عن طريق الملاحظة، وأمام هذا القصور عوض هذا المبدأ بمبدأ آخر، وهو مبدأ القابلية للرد،

⁶⁰ R.Carnap, « Intellectual autobiography », in: P.A.Schilpp, the philosophy of Rudolf carnap, 1963, P.59.

⁶¹ K.Popper, conjectures and refutations, ed, Basic Boocks, Newyork, 19652,P.281.

⁶² C.Hempel, Aspets of Scientific explanation, and other Essays in the philosophy of Science, ed, the free Press, Newyork, 1965,P.109.

وبمقتضاه "يجب أن يكون كل حد ذي دلالة تجريبية قابلاً للإدماج عبر سلسلة من جمل الرد، على أساس حدود الملاحظة"⁶³.

رغم أن هذا المبدأ أكثر مرونة واتساعاً من مبدأ التعريف، إلا أنه يطرح عدة صعوبات فلسفية وإبيستيمولوجية، ويضيق الخناق على مجموعة من المفاهيم العلمية، من قبيل: الذرة، الإلكترون، الأصناف، أصناف الأصناف... لذلك فهل هذه المفاهيم العلمية ليس لها معنى، حسب هذا التصور الذي يقدمه هامبل Hempel وباقي الوضعانيين؟

وبموازاة الجهود من أجل تشييد نظرية تحقيقية للدلالة المعرفية للعبارات العلمية، فإن التجريبيين المناطق اجتهدوا في ترجمة المعجم النظري إلى المعجم الملاحظي، وبموجب المسلمة التجريبية، وحسبها، فإن الحدود الملاحظة تفهم أفضل من الحدود النظرية، إنهم اعتقدوا بأن هذا كان جزئياً بفضل المعجم الملاحظي، وأن الحدود النظرية المستخدمة في العلم (وبشكل مضاد لحدود الميتافيزيقا التأملية) اكتسبت دلالة معينة (على أي حال، الجزء التجريبي لدالاتها)⁶⁴.

دائماً، وفي ظل تداعيات معيار الدلالة التجريبي، بمختلف مظهراته وتعبيراته، ظهرت إشكالية إبيستيمولوجية، وربما فلسفية بالأساس، تتعلق بمسألة "التوافق بين لغة التجربة" و"لغة النظرية"، وتعبير آخر، علاقة "حدود النظرية" بـ "حدود الملاحظة".

إن الثنائية نظرية / تجربة طبعت الفكر الفلسفي القديم والمعاصر، خصوصاً مع التجريبيين المعاصرين، الذين حاولوا أن يصوغوا قواعد محددة لربط "حدود النظرية" بـ "حدود الملاحظة" عن طريق ما سماه كارناب Carnap وناجل Nagel بـ "قواعد التوافق"، ريشنباخ Reichenbach بـ "التعريفات المنسقة"، رامسي Ramsay وكامبل Campbell بـ "المعجم"، وهامبل Hempel بـ "النسق التأويلي"⁶⁵.

ينطلق التصور الوضعاني من كون "اللغة صورة للعالم"، بمعنى أن التفكير في اللغة يعني التفكير في العالم، ولما كان العالم هو مجموع الوقائع، واللغة عبارة عن وحدات لغوية، فإن تحقق الدلالة مرتبط بتوافق الوقائع مع وحدات اللغة، ويقول ريشنباخ Reichenbach "تنبني اللغة على أشياء فيزيقية معينة تسمى

⁶³ Ibid, P.110.

⁶⁴ P.Jacob, « Qu'appelle-t-on un bon empiriste ? », in: P.Jacob, De vienne à Combridge, P.20.

⁶⁵ Ibid, P.22.

رموزاً، لأنها تمتلك دلالة، فالدلالة توافق معين لهذه الأشياء الفيزيائية مع أشياء فيزيائية أخرى؛ ويمكن توطيد هذا التوافق عن طريق قواعد معينة، تسمى قواعد اللغة⁶⁶.

لقد أكد كارناب Carnap على "أنه لا يمكن لنا البتة تعريف الحد النظري بصراحة على أساس حدود الملاحظة"⁶⁷، وهذا ما ينطبق مثلاً على مفهوم الإلكترون، بحيث أننا إذا أردنا تعريفه اعتماداً على الملاحظة المباشرة، فإننا لا نستطيع، ولا يمكن للفيزيائي أن يصفه إلا إذا توسل بمجموعة من القوانين، وفي هذا الوصف مجموعة من الحدود النظرية التي تحتاج بدورها إلى حدود الملاحظة.

إلا أنه لا يمكن لأنساق نظرية في الفيزياء أن تكون منعزلة ومستقلة عن وقائع العالم، لذلك فمن الضروري إقامة قنطرة، تصل كلما هو نظري بما هو تجريبي، وذلك يتجلى من خلال "قواعد التوافق" التي يقتصر دورها على ترجمة حدود النظرية إلى حدود الملاحظة، وصعوبات هذه الترجمة تتمثل في كونها غير مكتملة ولا نهائية، ويرجع هذا اللاكتمال إلى تاريخ العلم ذاته، وتاريخ الفيزياء بشكل خاص، فالنظريات الفيزيائية مفتوحة ولانهائية، ولا يمكن تصور نظرية نهائية، وهذا الأمر ينعكس على "قواعد التوافق" ذاتها، بحيث لا يمكن تصور قواعد التوافق نفسها، بل "قواعد توافق" جديدة ومتجددة باستمرار، إذ يقول كارناب Carnap إن: "هذه العملية لن تنتهي البتة، لأنّ ثمة إمكاناً دائماً لإضافة قواعد جديدة، وبذلك يزداد مقدار الترجمة المخصص للحدود النظرية، ولكن مهما كان مقدار هذه الزيادة لن تكون الترجمة نهائية"⁶⁸.

لقد حاول كارناب Carnap، أن يجعل موقفه أكثر مرونة، بخصوص "قواعد التوافق"، وذلك لكي يساير به المستجدات العلمية، وما تحمله من مفاهيم نظرية معقدة، وبعيدة عن التجربة المباشرة وعن الإدراك الحسي العادي.

إلا أنّ هذا التقابل الفاصل، بين الحد النظري والحد التجريبي، يعبر عن موقف سكوني من اللغة بشكل عام، ومن لغة العلم بشكل خاص، فمن الممكن أن يصبح الحد النظري تجريبياً، وقد يحصل العكس مع تطور العلم، فكم من "كائنات علمية"، كانت موجودة واندثرت، مثلاً "الأثير"، وكم من "كائنات علمية"، لم تكن موجودة فأصبحت موجودة، مثلاً الإلكترون، البروتون. لذلك، فقواعد التوافق، تتميز بنوع من الغموض والالتباس، وأحياناً باللامعنى، إذ يقول ناجل Nagel في كتابه "بنية العلم": "لا يمكن تجنب الغموض الذي

⁶⁶ H.Reichenbach, Experience and prediction, the university of chicago press, chicago and London, 1961,P.27.

⁶⁷ R.Carnap, An introduction the philosophy of science, edited by Martin Gordner, Dover Publication, INC, Newyork, 1995, (First published under the title "philosophical foundations of physics", by Basic Books, INC,1996) P.234.

⁶⁸ Ibid, P.238.

يحيط بقواعد التوافق تلك، بما أنّ الأفكار التجريبية لا تملك الحدود الواضحة التي تملكها المفاهيم. هذا هو السبب الأولي الذي لا يسمح بصورنة القواعد (أو العادات) بدقة كبيرة، من أجل إقامة توافق بين الأفكار النظرية والتجريبية⁶⁹.

إنّ هذا النقد الذي يوجهه ناجل Nagel "لقواعد التوافق"، يظل نقداً نابعاً من داخل التجربة المعاصرة، محافظاً على كل الإشكالات التي عالجتها، ومنطلقاً من الأسس الفلسفية والإبستمولوجية نفسها، باللغة نفسها، وبآليات التفكير نفسها، وذلك يتجلى من خلال اعتقاده في الثنائية الميتافيزيقية نظرية / تجربة، وما يترتب عنها من ثنائيات مثل: حدود نظرية / حدود تجريبية، وقوانين نظرية / قوانين تجريبية.

إنّ الاعتقاد بوجود حد فاصل بين التجربة والنظرية، استمرار للمقولة الكلاسيكية "عقل / تجربة" وتجاهل للتفاعل المتعدد الأطراف، بسبب تغير شروط الحياة الاجتماعية والتقنية، وإلغاء لدور العقل والتجربة على حد سواء، في توليد المعاني حسب مقتضيات التداول، فالمعنى يتغير حسب مقاصد وأغراض المتداولين داخل كل سياق، وليس قارة خارج التاريخ، متعالياً عن الإنسان، أو ماهية ثابتة مكتملة، بل هو حصيلة تفاعل وتبادل بين كل الأشكال المكونة للسياق المنفتحة على التاريخ الذي يقتضي تأويلات، وتأويلات مضادة، تمكن من تغيير المعاني حسب المواقف والمرجعيات، وكذلك الاختلاف في زوايا النظر، أو المنظورات حسب مانهائم.

يتعلق الأمر هن، بانفتاح المعنى وتجده، وصيرورته في اللحظة التاريخية نفسها، وفي لحظات مختلفة، فمثلاً، حينما نقف عند التأويل الأرسطي، والتأويل الفيثاغوري لظاهرة فلكية ما، نحصل على تأويلات مختلفة بل ومتناقضة، كما ينطبق هذا الاختلاف كذلك على التأويل الكوبرنيكي، والتأويل الكبلري، للظاهرة الفلكية نفسها.

إنّ ثنائية المعنى واللامعنى في الفكر الوضعاني الجديد يمكن ردها بالأساس إلى المنطلق النظري العام، الذي حاولت الحركة اعتماده، والمتمثل أساساً في وضع حد بين العلم والميتافيزيقا. فكل "ما يعني" ينتمي إلى مجال العلم، وكل ما "لا يعني" ينتمي إلى مجال الميتافيزيقا، وبذلك يطابق الوضعانيون بين اللامعنى

⁶⁹ E.Nagel, the structure of science, Problème in the logie of scientific Explanations, London: Routledge and Kegan Paul, first impression, 1974, P.100.

والميتافيزيقا. ومن ثمة فإنه من الضروري القضاء عليها واستبعادها من مجال العلم، إلا أنّ هذا الموقف نسي أو تناسى أنّ "العقل يستطيع أن يغير من ميتافيزيقاه، لكنه لن يتخلص من الميتافيزيقا"⁷⁰.

لقد ظل الوضعانيون الجدد سجينى الحدود الضيقة للعلم، من خلال إعطاء أجوبة محددة سلفاً بنوعية طرح السؤال المتمثل أساساً في استبعاد الميتافيزيقا من مجال العلم، ونقد التأمل الفلسفي من منظور علمي ضيق.

فنظرية الدلالة عند الوضعانيين الجدد ليست سوى قراءة وتأويل، من بين تأويلات ممكنة، وهذا ما يجعل إنتاجها الدلالي ليس دلالة في ذاتها، بل دلالة نسبية تختلف باختلاف المنظورات والزوايا، وبلغه نيتشه Nietzsche، يمكن أن نقول، إنّ الدلالة تحايتها إرادة القوة، وترجع إليها، لذلك فلا يمكن اعتبار التأويل الوضعاني الجديد تأويلاً اعتباطياً، أو تأويلاً في ذاته ولذاته، بل هو تأويل له خلفياته الإيديولوجية، والإبستمولوجية والفلسفية.

5- مسلمات مضمرة وصريحة

من خلال عرضنا ومناقشتنا لمختلف وأهم أفكار الوضعانية المنطقية، يمكننا القول إنها تحتضن اتجاهات فلسفية متغايرة، لكن هذا التغاير لا يمنعها من أن تلتقي في القضايا نفسها، والإشكالات نفسها التي ميزتها وطبعتها عبر تاريخ الفكر الفلسفي المعاصر، ويمكننا استجلاء هذه الأفكار فيما يلي:

1- التركيز على أنّ التجارب والخبرات هي المصدر الوحيد لمعارفنا عن الواقع.

2- نفي الضرورة واليقين عن القضايا الاختبارية والتجريبية، التي تقوم عليها علوم الواقع، لاستحالة الجمع بين الضرورة والتركيب.

3- الضرورة واليقين لا يجتمعان إلا في القضايا التحليلية التكرارية، ومن ثم التمييز بين نوعين من القضايا، قضايا تصور الواقع، صدقها احتمالي مرهون بالواقع وبتبدلاته وقضايا لا تصور الواقع، تكرارية، صدقها ضروري ويقيني غير مرهون بمكان معين ولا بزمان معين، ولا يتعلق بظروف خارج الفكر.

4- قصر المعرفة المشروعة على هذين النوعين من القضايا، وبالتالي على نوعين من العلوم يقومان على هذه القضايا: علوم واقعية اختبارية وأخرى صورية منطقية.

⁷⁰ G.Bachelard, la philosophie du Nom, Ed, cérés, Tunisie, 1993, P.13.

5- رفض كل القضايا الميتافيزيقية التي لا يتوفر فيها شرط قابلية التحقق، لذا فهي تبقى قضايا خالية من

المعنى.

6- حصر الفلسفة في التحليل المنطقي للقضايا والعبارات، خصوصاً منها قضايا وعبارات العلم. إذ أنّ المنهج الصحيح في الفلسفة، كما يقول فتجنشتين Wittgenstein (هو ألا نقول شيئاً خارجاً عما يمكن قوله، أن نقول قضايا في علوم الطبيعة- قضايا إذن ليس لها علاقة بالفلسفة- وأن نبين لكل امرئ يريد أن يقول شيئاً في الميتافيزيقا أنه لم يعط معاني للرموز الواردة في قضاياها، وهو منهج لن يكون شافياً للغيل بالنسبة للآخرين، إلا أنه يبقى بالنسبة لنا الأصح والأدق). فالهدف من الفلسفة لم يعد هو البحث في المشاكل التقليدية التي يثيرها الفلاسفة التقليديون، بل أصبح محصوراً في تحليل لغة العلوم والبحث فيها.

7- كل قضايا العلم الاختباري فرضيات أو عبارات احتمالية، صدقها ويقينها مرتبط ومقترن باختبارنا لها. فالصدق والكذب قراران ذاتيان يتوصل إليهما العالم من خلال اختباراه للأشياء وتجريبه عليها. ومادام تحقيق القضايا والتأكد منها مرتبطين بالزمان ومتعذرين من الناحية العلمية، فإنّ العالم هو الذي يتخذ قرار الحكم على فرضية ما بأنّها لها من اليقين ما هو كافٍ، رغم إمكان تكذيب الوقائع في المستقبل لذلك الفرض، فالتحقق الكامل التام غير ممكن، ونشداناً للتيسير العلمي يتخذ العالم قرار الاعتقاد في احتمال يقين الفرض⁷¹.

وكما لاحظنا سابقاً فإنّ معيار التحقق تعرض لمجموعة من الانتقادات سواء من داخل المدرسة، أو من خارجها، وقد ارتبط بشبكة من المشاكل والصعوبات التي حاول الوضعانيون الجدد إيجاد حل لها: كعلاقة التحليلي بالتركيب، وعلاقة الحد النظري بحدود الملاحظة، وعلاقة القوانين النظرية بالقوانين التجريبية.

ومن هذا المنطلق، يمكن اعتبار الفكر الوضعاني فكر الثنائيات وفكر التقابلات بامتياز، وهو الذي لم يستطع إلى حد بعيد وضع إجابات واضحة ونهائية لها. ربما هذا ما يفسر تعدد وتنوع مدارس واتجاهاته. خصوصاً أنّ الوضعانية تريد أن تبني نفسها كاتجاه على أنقاض التصورات التقليدية للعالم، ولا سيما الميتافيزيقية منها، وعلى فهم لا تاريخي لعلم يحيل الوقائع إلى معطيات مباشرة. لذا لا بدّ من رد الاعتبار للفلسفة والسؤال الفلسفي، لا في ثوبه الميتافيزيقي فحسب، بل وكذلك في ثوبه الإبستمولوجي، وذلك من خلال تنشيط المعرفة العلمية، واستئناف النظر فيها، كممارسة تاريخية، وكحركة فكرية، وكفعل فلسفي يعطي للعلوم التجريبية قيمتها الإجرائية الحقيقية وللعلوم الاجتماعية مكانتها الفعلية في تقسيم العمل النظري، ذلك الانتقال من نظرية المعرفة إلى نظرية العلم (أو الإبستمولوجيا) لم يكن انتقالاً بدون خسائر وضحايا، وأبرز ضحية، حسب

⁷¹ يفوت (سالم)، فلسفة العلم المعاصر ومفهومها للواقع، ص ص 170-171

هابرماس Habermas، هو التفكير الفلسفي⁷². كما يعتبر بوبر Popper، أنّ "الوضعانية المنطقية لم تحطم فقط الميتافيزيقا، بل العلم الطبيعي أيضاً"⁷³.

⁷² يفوت (سالم)، المناحي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، 1999، ص 102

ويضيف هابرماس Habermas أنّ الإبيستيمولوجيا الوضعية، بكل مدارسها، أساسها نفي التفكير والاستغناء عنه، انظر كتابه: « connaissance et intérêt ».

⁷³ K.Popper, « Logic of Scientific discovery », in J.Joergensen, the development of logical empiricism, vol2,N°9, the university of chicagopress, 1951, P.72

مسرد المراجع:

- Ayer, logical positivism, Illinois, the free press, Glencoe, 1959.
- A.soulez, Manifeste du cercle de Vienne et autres écrits.
- B.Kahn, « vérification », in: Encyclopédie des notions philosophiques, PUF, 1996
- C.Hempel, “les critères empiristes de la signification cognitive: problèmes et changements”, in: P.Jacob, De vienne à combridge, ed, Gallimard, Paris, 1980.
- C.Hempel, Aspets of Scientific explanation, and other Essays in the philosophy of Science, ed, the free Press, Newyork, 1965
- D.Hume, Enquiry concerning the human understanding, edited by, L.A selby-bigge, Oxford, 1962, Sex
- E.Mach, in:G.Holton, thematiorigins of scientific thought, kepler to Einstein, Harvard university, 1988,.
- E.Nagel, the structure of science, Problème in the logie of scientific Explanations, London: Routledge and kegan Paul, fasrth impression, 1974, P.100.
- F.Waismann, “Meaning and verification”.
- G.Bachelard, la philosophie du Nom, Ed, céres, Tunisie, 1993.
- H.Feigle, in J. Joergensen, the development of logical empiricism, vol₂,N°9, the university of Chicago press, 1951.
- H.Hahn, « Entités superflues (le Rasoir d’Occam) », in: A.Soulez, Manifeste du cercle de vienne et autres écrits.
- H.Hahn, O.Neurath, R.carnap, « Conception scientifique du monde », in: A.soulez, Manifeste du cercle de Vienne et autres écrits, ed, presses universitaires de France, Paris, 1985.
- H.Reichenbach, Experience and prediction, the university of chicago press, chicago and London, 1961
- K.Popper, « Logic of Scientifique discovry », in J.Joergensen, the development of logical empiricism, vol₂, N°9, the university of chicagopress, 1951
- K.Popper, conjectures and refutations, ed, Basic Boocks, Newyork, 19652.
- L.Wittgenstein, tractatus logico-philosophicus, 4.112, Ed, Gallimard, 1961
- M.Schlick, “Meaning and verification”, in: O.Hanfling, Essential readings in logical positivism, oxford, basil Blackwell,1981
- O.Neurath, « Enoncés protocolaires », in: A soulez Manifeste du cercler de vienne et autres écrits
- P.Jacob, « Qu’appelle-t-on un bon empiriste? », in: P.Jacob, De vienne à Combridge,
- R.Carnap, « le dépassement de la métaphysique par l’analyse logique du langage », in: A. soulez, Manifeste du cercle de vienne et autres écrits
- R.Carnap, « Intellectual autobiography », in: P.A.Schilpp, the philosophy of Rudolf carnap, 1963

- R.Carnap, An introduction the philosophy of science, edited by Martin Gordon, Dover Publication, INC, Newyork, 1995, (First published under the title “philosophical foundations of physics”, by Basic Books, INC,1996)
- R.Carnap, la Science et la métaphysique devant l’analyse logique du langage, 1931, traduction de l’Allemand par E.vouillemin, Hermann et cie, Paris, 1934.
- R.Carnap, le problème de la logique de la science, traduction par E.vouillemin et Hermann,
- S.chauvier, « Analytique, in: Encyclopédie des notions philosophiques, PUF 1996
- V.W. Quine, Methods of logic (1952), Routledge and kegan Paul, London and Henley, 1978
- V.W Quine, From a logical point of View, ed, Harvard University Press, Cambridge, 2nd edition (revised), 1962, (First published 1953)
- البعزاتي (بناصر)، الاستدلال والبناء، المركز الثقافي العربي، 1999
- بن ميس (عبد السلام)، قضايا في الإبستمولوجيا والمنطق، شركة النشر والتوزيع المدارس، 2000
- الجابري (محمد عابد)، مدخل إلى فلسفة العلوم: العقلانية المعاصرة وتطور الفكر العلمي، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة 3، 1994
- هانز ريشنباخ، الفلسفة العلمية، ترجمة فؤاد زكريا، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
- يفوت (سالم)، المناحي الجديدة للفكر الفلسفي المعاصر، دار الطليعة، بيروت، 1999
- يفوت سالم، مفهوم الواقع في التفكير العلمي المعاصر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة الأطروحات والرسائل:7، مطبعة دار النشر المغربية، الدار البيضاء (بدون تاريخ).



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هاتف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com